إلى متى ستبقى السعودية قادرة على تحمّل تبعات سياساتها الحالية؟

■ حميدي العبدالله

لا شك أنّ تصعيد المواجهة، وإثارة الحروب، وتعطيل البحث عن حلول سياسية لأزمات المنطقة، يشكل قوام السياسة السعودية الراهنة. وتتجلى هذه السياسة الآن في شنّ الحرب على اليمن، حيث يسقط يومياً عشرات الشهداء والجرحى، وهي شريك أساسي في التصعيد الذي تشهده جبهات القتال في سورية، ولا سيما جبهتي إدلب وتدمر، وما ينجم عنها من كوارث ومآس، وتحديداً سقوط عدد غير قليل من الشهداء في صفوف الجيش والمدنيين وهجرة الآلاف من بيوتهم، كما أنّ المملكة السعودية شريك مباشر وغير مباشر في التصعيد الذي يشهده العراق والمآسي التي حلت بسكان الرمادي، لأنها كانت ولا تزال من أشدّ المعارضين للاستعانة بالحشد الشعبي لمقاتلة «داعش»، وكانت هذه المعارضة وراء سيطرة هذا التنظيم الإرهابي على مدينة الرمادي وتشريد سكانها وارتكاب المذابح بحقهم.

كما أنّ حكومة المملكة السعودية تلعب دوراً أساسياً في دعم مواقف تركيا وقطر الساعية إلى دعم التنظيمات الإرهابية وتعطيل الوصول إلى تسويات سياسية لأزمات المنطقة.

لكن السؤال المطروح الآن، وبعد الحرب على اليمن، وفشل الحرب في تحقيق أهدافها، لجهة إنقاذ نظام الحكم القديم الذي كان يقوده عبد ربه منصور هادي ومنع حركة أنصار الله والجيش من التمدّد في كلّ أنحاء اليمن، وانتقال الحرب إلى داخل السعودية، إضافة إلى فشل سياسة السعودية في العراق لجهة تعطيل الاستعانة بالحشد الشعبي لتحرير الأنبار من «داعش»، مع ما يعنيه ذلك من حسابات السعودية في تعزيز دور ونفوذ القوى العراقية حليفة إيران، وفي ضوء الكلفة الباهظة لحروب المنطقة التي تموّلها السعودية وقطر، ولا سيما الحرب اليمنية، وانتقال هجمات القوى الإرهابية إلى داخل السعودية في المنطقة الشرقية والرياض وخروج التظاهرات بعشرات الألوف مستنكرة الهجمات الإرهابية في سابقة لم تشهدها المملكة منذ قيامها، إلى متى تستطيع السعودية الاستمرار في السياسة الحالية؟

الإجابة على هذا السؤال تكمن في واحد من خيارين:

الخيار الأول، أن تجري المملكة مراجعة لسياستها الحالية، بمعنى أن تتخلى عن سياسة تفجير الحروب، ودعم الجماعات المتشدّدة التكفيرية للحفاظ على نفوذها في المنطقة، وأن تسهّل التوصل إلى تسويات لأزمات المنطقة، بدءاً من الحرب في اليمن وانتهاء بالأزمة القائمة في سورية، ووقف تقديم الدعم الحالي المالي والإعلامي والعسكري للجماعات الإرهابية وللجماعات التكفيرية، وبغضّ النظر عن نتائج هذا الخيار فهو الأكثر واقعية والأقلّ خطراً على المملكة وعلى مصالحها واستقرارها.

الخيار الثاني، أن تستمرّ في سياساتها الحالية، وهذا يعني أنها ستواجه جيوش المنطقة مدعومة بالقوى الشعبية المسلحة، على جبهات اليمن والعراق وسورية، مدعومة هذه الجبهات من إيران، ومن كلّ الدول التي تخشى جدياً تعاظم خطر الجماعات الإرهابية والتكفيرية، ومن شأن ذلك بكلّ تأكيد أن يطيح باستقرار السعودية ويحمل مخاطر كثيرة على وجودها، ولا سيما انطلاقاً من اليمن والعراق حيث الحدود المشتركة.

قد تنجح السعودية عبر التشكيلات الإرهابية المسلحة أن تحقق نجاحات موقتة في هذه الجبهة أو تلك، مثل الذي حصل على جبهتي إدلب وتدمر في سورية، لكن من المستحيل أن يتحوّل المشهد العام لمصلحتها لأنها لا تحوز على القدرات التي حازت عليها دول وجهات أكبر وأقوى منها مثل الولايات المتحدة وحلف الناتو والكيان الصهيوني في لبنان عام 1982، وفي العراق منذ عام 2003، وفي أفغانستان منذ عام 2002.

في المحصلة ستخسر السعودية الحرب على جبهات سورية والعراق واليمن، وستكون ارتدادات خسارتها داخل السعودية أكبر من أن تتحمّلها، فهل تسارع إلى مراجعة سياستها الحالية، أو ترغَم من حلفائها على ذلك؟

الجواب على هذا السؤال برسم الأسابيع والأشهر القليلة المقبلة.

«إيباك» اللبناني و«تيوس» الديمقراطية الإقطاعية... بستان الخليفة بلا لبنان

■ نارام سرجون

في نهايات الحكم الشيوعي للاتحاد السوفياتي كانت الدعاية الغربية تصف الشيوعيين القدامى الذين يرفضون البيريسترويكا (الربيع الروسي) بالتيوس لأنهم متشبّثون بالخطاب الشيوعي القديم دون أن يتزحزحوا، وتبيّن في ما بعد أنّ التيوس كانوا على حق وأنّ الامبراطورية انهارت بسبب الاستسلام للربيع الشيوعي، أما من ينطبق عليهم لقب التيوس بجدارة في الشرق الأوسط فهم فريق 14 آذار اللبناني، الذين تظهر الأيام بسرعة أنهم فعلاً تيوس وأنّ لا فائدة من الكلام معهم ومناطحتهم، الفارق بين تيوس لبنان وبين تيوس الشيوعيين هو أنّ تيوس لبنان ليسوا ضدّ الربيع بل مع الربيع كما أنّ هذه التيوس صارت ترى النتيجة الرهيبة لنظرياتها السياسية ولكنها تصرّ على تجاهلها، وهي تنظر إلى السكين في يد الجزار على أنها مجرّد جزرة أو خيارة أو ورقة خس.

فريق 14 آذار اللبناني يجب ان يتمّ تدريسه كظاهرة للعناد السياسي والرؤوس السياسية التي تسمّى في العلم السياسي بالتيوس، وتمارس النطح في موسم التكاثر السياسي حتى تتكسّر جماجمها وتندلق مادتها الدماغية دون أن تتكسّر قناعاتها، لأنّ الآذاريين جماعة مضغوطة بالتشنّج الانتحاري واللامنطقية الانتحارية، وتقرأ المشهد السياسي بعقل يابس دون مناقشة، وتحل معادلة فيثاغورث الرياضية وكأنها دبكة لبنانية أو خلطة فتوش!

ولذلك تتحوّل كلّ كتلة 14 آذار الى كتلة «إيباكية» في لبنان تبصم بالعشرة على اي تعليمات تصلها عبر نشرة «ايباك» السعودية، التي تقرّر لها أنّ «داعش» ليس خطراً على اللبنانيين، وليس لديه أيّ طموح أو مشروع في لبنان، ومن يستمع الى دفاع الآذاريين المستميت عن «داعش» و«النصرة» يعتقد أنّ الخليفة البغدادي «إنْ انتصر على الرافضة والكفار سيحتفل «بالكريسماس» مع البطريرك الماروني بشارة الراعي في بكركي، وسيشرب المتة في المختارة مع وليد بيك جنبلاط ويضع اكليلاً من الزهور على ضريح أخيه الراحل كمال جنبلاط الذي قتله «النصيريون» الكفار، ولن ينسى أن يمرّ على الشيخ سعد الحريري ليصلي معه في السوليدير الذي سيقطع فيه رؤوس الشيعة الكفار فقط من جماعة الممانعة، وبعدها سيذهب الى ضريح الشهيد رفيق الحريري ولن يهدم قبره كما هدم كل قبور الصحابة والأولياء والأوابد، بل سيعليه ويرفع الأذان من عنده ويطلب من الله أن يظهر «الحثيأة» على الدين كله وينصر تيار «المستأبل» على الكفار ليرتاح المؤمنون،

الغريب أنّ داعش لم يقل يوماً انه لا يريد دخول لبنان ولم يصدر ايّ توضيح يستثني به لبنان أو يلمح الى انه سيتوقف عند نقطة المصنع على الحدود السورية، بل انه يقول انه مسؤول عن الخلافة والدولة الاسلامية في العراق وبلاد الشام كلها وكل بلاد وديار الاسلام، وحسب مصطلح بلاد الشام التقليدي في القواميس الإسلامية فإنّ لبنان ضمن بلاد الشام، ومع هذا يتبرّع الآذاريون بتبرئة «داعش» من نية اقتحام لبنان ويحلفون أنّ داعش لا يصوّب على لبنان رغم انّ إمارات «داعش» في لبنان وراياته وشعاراته ورايات «النصرة» وشعاراتها تقلع العين.

والغريب أنّ «داعش» يقول علناً ودون تردّد انه يريد محاربة الرافضة ضمن خطاب تعبوي طائفي مفرط في غلوائه للغاية، وهو يجاهر بكراهيته للشيعة في كلّ الأرض، ويسعى إلى إقصائهم وذبحهم في كلّ بلاد الشام لأنها بلاد الدولة الاسلامية النقية، وهذا يعني انّ شيعة لبنان كجزء من سكان بلاد الشام (بستان الخليفة) معنيون ومستهدفون بالعنف والمجازر سواء حاربوا مع سورية أم لم يحاربوا.

ومع كل هذا الوضوح والصفاء في الخطاب والصراحة في رسم الخرائط والشعارات يقول لنا مجانين ايباك اللبناني من تيار المستقبل وفريق 14 آذار مثل سمير جعجع إنّ داعش لا يريد دخول لبنان، وليس في مخططاته السيطرة على لبنان، أو إلحاقه ببستان الخليفة، بل انّ حزب الله هو الذي يثير غضب داعش بالذهاب الى سورية، وهو يوجه دعوة إلى «داعش» لدخول لبنان لتعقبه والانتقام من تورّطه في حرب أهل السنة في سورية، ولولا ذلك لما فكر «داعش» في اللحاق به الى لبنان، ويزيدون أنّ الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله يبالغ في التخويف من «داعش» وإثارة القلق من الدواعش من اجل ان يبرّر تحالفه مع الأسد.

ويريد هؤلاء الذين يلبسون السراويل القصيرة في مقاهي بيروت ويتسلون بشرب البيرة والعرق الزحلاوي على الروشة أن يقولوا لنا إنه لا داعي لقلق الشيعة اللبنانيين من «داعش»، وانّ عليهم ألا يصدّقوا السيد حسن نصرالله لأنّ «داعش» سيقضي على الشيعة في العراق وسورية فقط ويبني دولته هناك ويترك شيعة لبنان ودروزه ومسيحييه، دون أن يمسّهم بأذى، لأنهم في لبنان تحت مظلة سمير جعجع ووليد جنبلاط وسعد الحريري وشواربهم، وقد وضع الثلاثة أيديهم على شواربهم لتوثيق الوعد والتطمين.

كلما استمعت الى ايباك لبنان من جماعة 14 آذار أحسّ أنّ الديمقراطية الإقطاعية هي اللعبة الخطرة والقذرة التي تأتي بالمال وتضع هؤلاء ممثلين للشعب اللبناني، ولكنهم ممثلون لنتنياهو كما هو الكونغرس الأميركي، يصفق له ويقف خاشعاً أربعين مرة، وتحمرّ الأيدي من التصفيق لإبداعاته، إيباك 14 آذار لا يريد ان يقول الحقيقة للبنانيين من أجل حفنة من الريالات والدولارات، لأنّ الإيباكيين اللبنانيين يعتقدون انّ تنظيم «داعش» سيدخل لبنان ولكنه سيهاجم حزب الله والشيعة فقط وتنتقي رصاصاته وسكاكينه فقط الأعناق الجنوبية، كما انتقت دواعش «إسرائيل» الضاحية الجنوبية في حرب 2006 وحطمتها وحوّلتها الى رماد، ولكنها تركت مقاهي بيروت (الصديقة) دون أن تمسّ على بعد أمتار من الضاحية، وكان مشرط الطيران «الاسرائيلي» يمرّ على رصيف الضاحية ويترك الرصيف الآخر للآذاريين على بعد أمتار سالماً بفناجين القهوة وجمر الأراكيل، والإيباكيون الآذاريون يسوّقون لجمهورهم أن لا داعي للقلق من تهويلات نصرالله لأنهم محميون بالغرب وفرنسا و«إسرائيل» التي ستحطم «داعش» اذا اقتربت من لبنان، كما تحطمت عند حدود أربيل وعين العرب، وهؤلاء لا يمانعون انْ مات حزب الله وحاضنته بينهم بسكين «إسرائيل» او سكين «داعش»، وانْ مرت المذابح في طريقها الى الجنوب عبر غرف نومهم،

وكذلك فإنهم في منتهى الصفاقة إذ يريدون من جمهور حزب الله أن ينام بهدوء وألا يقلق من «داعش» وألا يهاجم «داعش» قبل أن يصل اليه في قراه ومدنه، لأنّ سمير جعجع وأحمد فتفت تعهّدا بأنّ «داعش» تنظيم يمكن التفاهم معه بالحوار وسيزجره «القبضاي» سعد الحريري حتى تتقصّف ركبتا البغدادي من الرعب.

هذا ليس قصر نظر بل طول باع في الخيانة الوطنية التي تبيع جزءاً من الشعب اللبناني أولاً وكلّ الجغرافيا اللبنانية ثانياً، ولا تتفهم قلق البعض وهو يرى شعارات لذبحه وذبح مقدساته وليس لإقصائه، ولكنها اللامبالاة، الا أنّ طول باع الخيانة يولد قصر البصر في مجال آخر، فالإيباكي اللبناني لا يرى أنّ هناك في البعيد البعيد محاولة لاجتثاث الوجود المسيحي نهائياً من الشرق، لأنّ وجود «إسرائيل» لا يستوي ببقاء المسيحية المشرقية التي كانت هي التي تناصب العداء لمشروع «إسرائيل الكبرى»، ولأنّ المسيحية المشرقية هي التي كانت الجسر والناقل أو «الكابل الحضاري» بين الشرق والغرب لتطوير المشرق وإشعال فتيله الحضاري ثانية، وتألق في ذلك بالذات مسيحيو بلاد الشام، فالاحتكاك المسيحي الاسلامي في الحروب الصليبية ولّد شرارة النهضة في اوروبا اثر صدمة اللقاء مع الشرق المتطور آنذاك في الطب والفلك والعلوم والصناعة والفلسفة وحركة الترجمة عن اليونان، ولكن تيار الحضارة الآن بدأ بالانتقال بشكل معاكس عبر المسيحيين المشرقيين الذين قادوا الى حدّ ما عملية نقل التنوير والتثقيف من أوروبا ضدّ الظلام العثماني، وربما كان أشدّ الثوار تطرفاً في مشروع نهوض الشرق هم من المسيحيين، فأكبر الأحزاب وطنية مثل الحزب السوري القومي الاجتماعي وحزب البعث أسّسهما سوريان مسيحيان هما أنطون سعاده وميشيل عفلق، بل انّ أول عملية استشهادية ضدّ الغرب لم يقم بها مسلمون بل نفذها مسيحي عربي سوري من مدينة اللاذقية اسمه جول جمال ضدّ بارجة حربية فرنسية (ايّ مسيحية) في العدوان الثلاثي على السويس عام 1956 عندما دعم السوريون الشعب المصري لردّ العدوان،

ولذلك فإنّ «داعش» كفكر لن يعفي اللبنانيين من مختلف الشرائح، وسيقود عملية تدمير الوجود المسيحي أولاً في لبنان اذا تمكن، لأنه هدف «إسرائيلي» بتنظيف الشرق من التنوّع ومن المكوّن المسيحي الذي يشكل نقيضاً مهماً له لا يقلّ عن النقيض الاسلامي الحقيقي والنقيض القومي العربي، لأنّ المسيحي العربي لا ينظر الى القضية الفلسطينية كالمسيحي الاوروبي الذي تسيّره إيباكيات اوروبا.

وغني عن القول إنّ استرخاء هؤلاء الإيباكيين وتخدير السنة والمسيحيين بالجزر والخيار سيدفع ثمنه السنة والمسيحيون في لبنان، فالى جانب تهجير المسيحيين فإنّ المسلمين السنة سيحظون برعاية أمير المؤمنين بدفعهم الى الجنة وهم بنظره رعية الخلافة الذين سيدفع بهم الى الفتوحات وفق الفكر «الداعشي» وفكر «النصرة» الذي تسيّره العقول الصهيونية، وسيحمل هذا الفكر المسلمين السنة إلى القتال في حروب بلا نهاية وعبثية وسيشحنهم الخلفاء في سيارات الدفع الرباعي كالغنم الى حروب القرن المقبل في أوراسيا ليقتلوا ويقتلون، وبذلك ينتهي الغرب نهائياً من المارد الإسلامي الذي ينتحر في حروب عبثية في العالم، دون عناء، وينتهي من الوجود المسيحي الذي يشكل زيت المصباح في الشرق، والسبب هو هذه النخب الإقطاعية الإيباكية التي تصوّت بالدولار والريال، ولا تعنيها مصالح شعبها وطوائفها تريد إقناعنا بأنّ «داعش» لا يريد من لبنان الا أن يبقى بلداً يصنع له الكبة النية والتبولة والدبكة اللبنانية والعتابا والزجل.

ولذلك وفي نوع من التحدي يجب أن نطالبهم بإثبات وجهة نظرهم بأن يضغطوا على أمير المؤمنين البغدادي كي يصدر الخليفة أمراً عاجلاً بمثابة الفتوى التي لا تردّ ويقضي بتغيير اسم الدولة الاسلامية في العراق والشام الى اسم جديد هو (الدولة الاسلامية في العراق والشام إلا لبنان)، حيث يتخلى الخليفة أمير المؤمنين عن إمارة لبنان، وتصدر ملاحق فورية بتغيير الخرائط السابقة التي استثنت لواء اسكندرون السوري (لأنه هبة الدولة الاسلامية الى تركيا الأم العثمانية) حيث أن الخرائط الجديدة ستستثني لبنان من أرض الخلافة، وسيكون اسم التنظيم الجديد (داعش الا لبنان = داعشال).

أئتلاف المعارضة السورية تركي الهوى داعشي الهوية...

■ سعد الله الخليل

ليس بغريب على ائتلاف المعارضة السورية أن يمثل التوجهات التركية، وأن يركب موجة الأهواء السلطانية في سياساته وقراراته وتوجهاته لتوافر كلّ موجبات الولاء المطلق غير القابل للنقاش أو المساومة، فمن التمويل التركي منقطع النظير إلى الإقامة في فنادق السلطنة الجديدة ذات النجوم الخمسة مروراً بالتعاون الاستخباري المحكم وولاء الطاعة «الإخواني»، والذي حوّل أعضاءه إلى مجرد صبية صغار في لعبة أردوغان الكبيرة، بالتوغل أكثر في الأرض السورية والإمعان في دمٍ أبنائها، فتنقضّ لتقزم انتصارات أبناء جلدتها في مواجهة أعتى التنظيمات الإرهابية سفكاً في الدم السوري، وآخرها البيان الذي اتهمت فيه وحدات الحماية وحزب الاتحاد الديمقراطي، والذي يصف سلوكهما «بالإرهابي بما ينسجم مع مخططات النظام»، بحسب وصف الائتلاف، «في محاولة لتهميش الإنجازات التي حققتها الوحدات في مواجهة تنظيم «داعش» في الحسكة والقامشلي، وطرده من أجزاء واسعة من المنطقة الشمالية، وبعد إعلان عزمها التصدّي لـ«جبهة النصرة» ومرتزقتها في حلب، وإعلانها سعيها لتحرير تل ابيض في الرقة من «داعش»، وهو ما لم يرق للائتلاف ولشخصيات وازنة فيه سبق أن بايعت تنظيم «داعش» على السمع والطاعة.

ولمن يتعجب من انزعاجهم من إنجازات وحدات الحماية فليتذكر تاريخ «الإخوان المسلمين» في سورية في الثمانينات حين استباح الدم السوري تحت راية ليست ببعيدة عن راية «داعش» و«النصرة» التي يهلل لها أبناء قتلة الأمس ويسخرون في بيان من مواجهة السوريين لتنظيم أدخله حليفهم الملا أردوغان في مشهد يعيد إلى الذاكرة بيانات استنكار وإدانة «الإخوان» للتنصل من مجازر لا تنسى في تاريخ سورية من الأزبكية إلى مدرسة المدفعية ومحاولة إلباس الجريمة لفصائل منشقة عن التنظيم.

قامت قيامة الائتلاف حين أعلنت وحدات الحماية مواجهة «جبهة النصرة»، وهو ما يتعارض مع مشروعها التركي الأميركي بتعويم «النصرة» ومحاولة إثبات «براءتها» من تهمة الانضواء ضمن قائمة التنظيمات الإرهابي،ة حيث تولت المهمة كبريات الصحف العالمية ومحطات التلفزة الأميركية ومن يدور في فلكها من المحيط إلى الخليج، صورة تلاقت فيها رؤية وحدات الحماية مع رؤية الجيش العربي السوري والمقاومة على كسرها وهزمها ما استدعى جنون الائتلاف وتركيا التي لم تكد تنسى صفعة الوحدات لمرتزقتها في رأس العين وعين العرب وتل تمر التي شرّع لها أردوغان بواباته الحدودية ليعيثوا في الأرض السورية جرائمهم.

رغم مرور عقود على جرائم «الإخوان المسلمين» في سورية يستمرّ النهج الإقصائي الدموي في فكر وسلوك من لفّ لفيف التنظيم بجناحيه السوري والتركي تحت يافطة «العدالة والتنمية»، عبر لعبة تبادل الأدوار المفضوحة منذ اليوم الأول للأزمة السورية فمن غطى سرقة تركيا لمعامل حلب خطط لخطف السوريين ونقلهم إلى المشافي التركية للمتاجرة بأعضائهم وغض الطرف وهلل لدخول «النصرة» إلى إدلب وبارك جهود السلطان العثماني الجديد باستدراج الموهوبين من أبناء سورية في المخيمات التركية ومنحهم جنسية السلطنة لتمثيل أنقرة في المحافل دون أن يرفّ للائتلافيين جفن أو ينبسوا ببنت شفة معترضينَ على ما سرقته تركيا من حجر وبشر، ويتساءل مراقبون: هل يجرؤ على ذلك رئيس الائتلاف التركي الجنسية؟!

جهود تركيا الحثيثة على خط اللعب بثلاثية «الائتلاف» و«النصرة» و«داعش» قد تفضي في الأيام سباقاً لمبايعة الجولاني أو البغدادي إماماً للائتلاف المعارض بعد احتراق أوراقه في المحافل وعلى الأرض وإسدال الستار عن مسرحية ائتلاف سوري معارض تركي الجنسية داعشي الهوية.

«توب نيوز»

فضيحة واشنطن

عندما تكتب الصحف والمؤسسات الإعلامية الأميركية الكبرى مقالات وإفتتاحيات تسوّق لوقف الغارات على «داعش»، ولاعتبار النصر على «داعش» أشدّ خطراً من بقاء التنظيم في سورية والعراق، وتسوق لأهلية جبهة «النصرة»، فلا يجوز أن يكون هناك مجال للشك بأنها أولاً فضيحة، وثانياً اعتراف علني بالخطة.

كتبت فورن بوليسي: «منذ أن بدأت اميركا قصف داعش أخطأت، فمنحت الجيش السوري فرصة سحق المعارضة».

تسأل فورن بوليسي شبه الرسمية «هل سيتحوّل العالم إلى مكان آمن إذا تمكنت واشنطن وحلفاؤها من هزيمة تنظيم داعش في العراق وسورية؟ وتجيب: «لا للأسف».

صحيفة «وول ستريت جورنال» للمقارنة بين «داعش» و«النصرة» تقول إنّ «النصرة» تتغيّر نحو الديمقراطية وتبتعد عن الإرهاب، وإنها تحاول الحصول على الموافقة من الناس وتحترم عاداتهم كالتدخين واللباس.

كريستيان ساينس مونيتور تقول انّ انتصارات «داعش» لا ردّ لها لأنّ أسبابها الروح المعنوية، فلا مبرّر للبحث عن النصر، ويكفي للغرب ألا يعود المقاتلون إلى بلادهم.

الخطة لا تقصفوا «داعش» ولا تسعوا إلى النصر عليها وبقاؤها خير للغرب من هزيمتها، و«النصرة» بديل مقبول في النهاية.

التعليق السياسي

ما هو مصير البشر والحجر في لؤلؤة الصحراء؟

■ جودي يعقوب

من منا يجهل الدور التاريخي لـ«لؤلؤة الصحراء» كموقع استثنائي للتراث الإنساني العالمي في الصحراء السورية، حيث تعدّ المدينة الأثرية «تدمرتو» ومعناها باللغة السريانية «المعجزة»، والمدرجة كواحدة من ستة مواقع سورية على لائحة التراث العالمي لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونيسكو) مهداً للحضارة الإنسانية، فهي من أقدم المدن التاريخية، حيث تدعو آثارها إلى التأمل والدهشة والفخر بعظمة تاريخها، وتنتشر أوابدها على مساحة كبيرة تضمّ أكثر من ألف عمود ومقابر برجية مزخرفة مثل الشارع المستقيم الذي تحيط به الأعمدة وقوس النصر والحمامات والمسرح، الذي ما زال في حالة ممتازة، والمدرج والساحة العامة والقصور والمعابد وأهمّها «معبد بل» والمدافن الملكية وتماثيل وآثار كثيرة تنطق بسحر مدينة تدمر التي نافست عاصمة الإمبراطورية روما أيام مجدها وأصبحت عاصمة لأهمّ ممالك الشرق والممالك التجارية، فلقد كانت لها معاملات مع كافة الحضارات المعاصرة لها في الشرق والغرب، وكانت مراسلات تجار تدمر ومكاتباتهم التجارية تتمّ باللغة الرسمية «الآرامية» لتعاملاتهم وتجارتهم مع الشرق، وباللغة «اللاتينية» في تعاملاتهم مع الغرب في زمن الرومان، كما كانت من أولى الممالك التي كانت تتسم بالتسامح الديني حيث عثرت البعثات الأثرية على الكنائس، كما عثرت على معابد لمعبدي النار والشمس والخمر، حيث يوجد في متحفها إلى الآن تمثال زاخوس إله الخمر، وعشتار إلهة الخير، وبل حامي المدينة إله الشمس، وكان هذا التراث الإنساني الذي يتمثل قسم كبير منه في بقايا مملكة تدمر الغائرة في عمق البادية السورية قبل اشتعال فتيل الأزمة في كياننا الشامي وجهة سياحية بارزة، إذ كان يقصدها أكثر من 150 ألف سائح سنوياً لمشاهدة آثار هذه المدينة التاريخية التي تعود إلى أكثر من 2000 سنة، وتدمر التي كانت هدف السياح من كلّ أصقاع الأرض باتت اليوم في قبضة إرهابيّي «داعش» الذين قدموا من مختلف بلدان العالم...

فقد أصبحنا وللأسف في كلّ يوم نرى تقدّماً واضحاً لا يمكن إنكاره لـ«داعش» في الميدان، ولم يعد تقدّمه خبراً استثنائياً، فما هو سبب قوة هذا التنظيم؟ ومن هي الأيادي الكبيرة الداعمة له؟ لأنه لا يمكن لأيّ تنظيم في العالم أن يمتلك في ظرف قياسي كلّ هذه القوة، فكلّ التنظيمات عبر التاريخ لم يستطع أيّ منها الوصول إلى هذا الحجم المخيف من قوة «داعش» في هذه الفترة القصيرة، ألا يلقي هذا التقدّم السريع الذي يحرزه هذا التنظيم بظلال من الشك على استراتيجية الولايات المتحدة في حربها ضدّ هذا التنظيم؟ خصوصاً أن دولة الخلافة ما زالت تتمدّد تحت أنظار ما تعرف بالحرب الكونية المفترض أنها معلنة منذ حوالي التسعة شهور تقريباً بقيادة الولايات المتحدة، والتي اعتمدت فقط تقريباً على الغارات الجوية لهزيمة هذا التنظيم المتشدّد كما تدّعي، مع أنّ هذا التمدّد يخالف كلّ توقعات الدول الغربية التي كانت تتحدث عن احتوائه، فنظرة بسيطة إلى تعامل أميركا مع سلوكيات هذه الجماعات خلال الأشهر المنصرمة تلقي على سياستها ما يكفي من الضوء لكشف خبثها ومشاركتها في هذه الجرائم، فلماذا لم يقم هذا الطيران الذي يحلق فوق قطعان الإرهابيين الزاحفين نحو مدينة تدمر ولو حتى بمناورة توحي بأنّ أميركا كانت تريد منعهم قبل الوصول إلى المدينة، وهي تعرف حق المعرفة بما سيجري في المدينة من محو لتاريخها، إضافة إلى قتل للسكان المدنيين الآمنين؟ أليس من الواضح أنّ الهدف من التحالف هو توفير غطاء جوي للجماعات الإرهابية في تحركاتها لخدمة أهدافهم وتأمين عمقٍ استراتيجي لهم، خصوصاً أنها تعتبر البادية السورية مجالاً حيوياً لها، فبعد أيام قليلة فقط من سيطرة «داعش» على مدينة الرمادي تمكن من السيطرة على المنطقة الأثرية في تدمر الغنية بالنفط والغاز والتي تتمتع بموقع جغرافي استراتيجي بالنسبة إليه، إذ تفتح له الطريق نحو البادية لوصل مراكز ثقله في محافظة الأنبار في كياننا العراقي بدير الزور والرقة وصولاً إلى القلمون الشرقي والغربي، وتهديد الطريق الدولية دمشق – حمص؟ ألا يشير هذا إلى أنّ هذا التنظيم يكتسب كلّ يوم قوة دفع جديدة تمكنه من التقدّم في المنطقة، فالأدلة هنا تقدّم نفسها بنفسها، فلم نعد بحاجة بعد إلى وثائق مسرّبة عبر ويكيليكس لنعرف أنّ الولايات المتحدة الأميركية بتمويل من دول صهيو - خليجية تقف وراء هذه الجماعات الإجرامية وتدعمها وتستخدمها لتنفيذ أجنداتها الاستعمارية، لذا لا يمكننا التنبّؤ بما سيفعله تنظيم «داعش»، وما قد يحصل للناس والآثار في هذه المدينة العريقة!

فليس خافياً على أحد أنّ «داعش» يعتبر مثل هذه المدن الأثرية من أولى الأهداف التي ينبغي تدميرها والتخلص منها، وهو ما يتوافق مع منطق تنظيم «الدولة الإسلامية»، فكلّ شيءٍ يعود إلى ما قبل عصر الدين الإسلامي يعتبره التنظيم الإرهابي مخالفاً للدين الإسلامي، بالتالي يستحق التدمير، حتى المتحدث باسم البيت الأبيض «جوش أرنست» اعتبر أن استيلاء «داعش» على تدمر هو «انتكاسة» لقوات التحالف...

فما يجري اليوم في كياننا الشامي والعراقي من تدمير وقتل وسبي، على أيدي إرهابيّي دول الصهيو - أميركية والبيترودولار هي جرائم بشعة بحق الإنسانية لأنها لا تستهدف المدنيين وحياتهم وحقوقهم ووجودهم الإنساني فقط، بل وتتطور إلى تخريب لكلّ موروث ثقافي، فتدمير آثار نينوى وغيرها بالأمس، وتشريد سكان محافظة الرمادي وقتل المدنيين في تدمر ومحاولة إبادة تاريخ هذه المدينة ترقى إلى جرائم حرب، وهذه الجرائم ترتكب بنفس الوسائل التي كانت سائدة في عصور الهمجية والظلام، فكلّ من يجد نفسه في منطقة الصراع يتعرّض للقتل والترويع والسبي، فلا التزام بأيّ من قواعد الحروب في ما يتعلق بحماية المدنيين والأسرى والبنى التحتية للمجتمعات، بل على العكس فالحرب الإرهابية وما يصيب إرثنا الإنساني والحضاري الذي لا مثيل له هي مجرّد غيض من فيض إزاء أعمال القتل والتهجير التي تُشنّ على أمتنا وشعبنا على يد مسلحي «داعش»، فدخول تنظيم الدولة الإسلامية إلى مدينة تدمر، التي تعدّ أحد أهمّ الكنوز الأثرية في سوريانا، يعني معركة بين الحضارة والانفتاح والتحرّر والإنسانية وبين الهمجية والتخلف والوحشية، ويُعتبر أيضاً خسارة لأهمّ مدينة للتراث العالمي ككلّ وليست لسورية فقط، ألم نع من خلال التجارب السابقة التي شاهدناها عن ممارسات هؤلاء التكفيريين والسوابق التي اقترفوها بحق الحضارة في مدن تاريخية أخرى مؤشراً إلى ما ينتظر تدمر اليوم من أعمال قتل جماعية وتدمير لآثار ثقافية ومعمارية، أليس يعد واضحاً أنّ تدمير «داعش» وغيرها من التنظيمات الإرهابية للآثار هو تنفيذ لأجندة استعمارية تهدف إلى إفراغ سوريانا من مكوّناتها التراثية والثقافية والتاريخية، لذا علينا اليوم أن نصلي أن لا تكون الأضرار بحق هذه المدينة وآثارها قاسية، بعد أن كان أملنا بأن يكون هناك تحرك قوي لمنع جحافل «داعش» من التقدم نحو المدينة قبل وصولهم إليها، لكنه للأسف لم يحدث ذلك، لذا أصبح أملنا الوحيد الآن هو في تضامن وتكاتف ووحدة أبناء شعبنا في سبيل الدفاع عن تراثنا الذي هو هويتنا وذاكرتنا، لذا يجب أن نكون بجانب بعضنا البعض كسوريين ضدّ هذه الأعمال، وضدّ أي مسّ بحضارتنا وحضارة الإنسانية ولا نسمح بأن تباع آثارنا بالمزادات العالمية، ولا نسمح أيضاً بأن تدمر صارت تحت ستار التطرف والتعصب واللاإنسانية، لذا أصبح من الضروري الآن البحث عن استراتيجيات جديدة للتعامل مع الوضع القائم في تدمر، خصوصاً أنّ مصير هذه المدينة التاريخية التي لها مكانة خاصة في التراث العالمي لا يزال مجهولاً.

لذا يجب أن نفكر بإجراءات جدية تمكننا من منع هؤلاء من تدمير تراثنا الثقافي السوري، وأن ندعو وبإلحاح المجتمع الدولي إلى تقديم دعم مختلف لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، كي لا تلاقي تدمر نفس مصير مدينة نمرود الأثرية في كياننا العراقي التي عمد «داعش» إلى تجريفها وتدمير ما فيها من آثار، والسعي بكلّ جدّ إلى أن نتوصل إلى حل سياسي بأسرع ما يمكن، وأن لا نوقف مناشداتنا إلى مجلس الأمن ومنظماته وجميع الجمعيات المعنية ليبذلوا جهداً أكبر لمنع هذه التنظيمات الإرهابية من تدمير المواقع الأثرية، وليعملوا بأسرع ما يمكن على تطبيق القرار ذي الرقم 2199 الصادر في شباط 2015 القاضي بتجفيف منابع الإرهاب وحماية التراث الثقافي المهدّد في الكيانين الشامي والعراقي، وأيضاً نحن بحاجة إلى أن يقوم جميع القادة السياسيين والرؤساء الروحيين بدورهم للحيلولة دون قيام عناصر التنظيم بطمس المعالم الحضارية لمنع هذا التدمير وملاحقة شبكات الاتجار بالقطع الأثرية المهرّبة، مثلما فعلوا في مواقع أثرية مماثلة في المناطق التي خضعت لنفوذهم، أليس هناك من شيوخ تفتي بأنّ تدمير التراث الإنساني والحضاري وكذلك التعامل بالتهريب والبيع والشراء في الآثار المنهوبة هو أمر محرّم شرعاً، وهو ما تقوم به الآن هذه الجماعات المتطرفة لتمويل عملياتها الإرهابية، أم أنّ شيوخ الفتنة مختصون فقط بفتاوي القتل وقطع الأطراف والسحل وجهاد النكاح والسبي وما ملكت الأيمان...

اليوم، وعلى رغم تعالي الأصوات المنادية بحماية هذا الإرث الإنساني والتاريخي، إلا أنّ تساؤلاتنا تتمحور على صمت المجتمع الدولي ومنظماته إزاء ما يصيب رمزاً من أهمّ رموز الميراث الثقافي الغني في سورية، ومفترقاً للحضارات التي تنتمي إلى البشرية جمعاء، أم أنّ هذا الصمت هو فقط لإطالة أمد الحرب حتى يصبح تقسيم سورية أمراً واقعاً، أو حتى تتأكد الولايات المتحدة بأنّ حليفتها «إسرائيل» أصبحت في أمان لفترة لا بأس بها بعد أن استنزفت القوة العسكرية والجيش البطل في الكيان الشامي والذي كان سنداً للسوريين جميعاً من خلال حرب لا طائل من ورائها إلا رسم معالم جديدة للمنطقة هي تريدها وتحدّدها على حسب مصالحها الاستعمارية فقط، فالكلّ أصبح الآن على بينة بما يجري، فبعد أن اتخذت أميركا وبكلّ وضوح مواقف منحازة إلى جانب طفلها المدلل «إسرائيل» في كلّ قراراتها، أرادت من هذه الحرب دعماً لاقتصادها المهزوز وخدمة لـ«إسرائيل»، وذلك بدفع حكام الخليج إلى صرف ملياراتهم الصدئة على تسليح الميليشيات المقاتلة في سوريانا والتي ستعود بدورها إلى الخزينة الأميركية، فالمفارقة باتت مدعاة للسخرية، فأيّ منطق أعوج هو هذا؟ فهل تغيير النظام في بلد ما يستدعي تدمير كامل البلد بكلّ إمكانياته وقواته وبناه التحتية ورفض أية مبادرة سلمية للحلّ، فهل يُعقل أن يصدّق عاق أو حتى مجنون، أن دول الصهيو - خليجية أشعلت هذه الحرب خدمة للشعب في الكيان الشامي، لقد سقطت ورقة التوت الأخيرة التي كانت تستر خيانتكم وتعاملكم مع «إسرائيل» وأميركا، فأين كان حسّكم الوطني أثناء حروب العدو «الإسرائيلي» واعتداءاته المتكرّرة على الكيانين اللبناني والفلسطيني؟ لقد جُررتم إلى هذه الحرب من قبل أسيادكم، وهم من الواضح لا ينوون الحسم إلا بعد أن يتأكدوا من أنهم حققوا مآربهم وغاياتهم الاستعمارية كما يطمعون، وأنتم لن تستطيعوا أن توقفوا هذا الوحش المسمّى بـ«داعش» الذي سيبتلعكم وسينقلب على صانعيه – أي أنتم – وأنتم لا تزالون غافلين عن هذا، مثلما أنتم الآن غافلون وناسون بأنكم تواجهون أبناء الحياة، وأنكم تحاربون شعباً بنى نفسه بنفسه، وتحاربون أمة مهما حدث فيها من دمار سيعيد شعبها بعثها من جديد ولو من رماد، لأننا كطائر الفينيق شعب لا نموت، شعب نُبعث أحياءً من جديد، شعب لا ينام على ضيم، ولن نهدأ أو نرتاح إلا بعدما أن نرى زنوبيا وهي تحيا بيننا من جديد، انتظرونا فإنّ زلزالنا المدمّرآتٍ...